

1. البعد السياسي، والتاريخ والمضمون، للساحة الإيطالية

د. وليد أحمد السيد

الوطن العمانية، الأحد 2 أكتوبر 2011

تحتل الساحة في المنظومة الفراغية الحضرية مكانة مهمة لأنها تعمل بمثابة "البوتقة" التي تتساقب فيها الأحيزة الفراغية المحيطة من جهة، كما أنها تحتضن الفعاليات والأنشطة الحضرية التي تتفاعل فيها الفئات الإجتماعية والإثنيات وتشكل مسرحا لانشطتها المختلفة. وبالإضافة لبعدها الإجتماعي هناك بعد آخر أكثر أهمية حيث يمكن قراءة "أيديولوجيات" مرتبطة بالساحة، وكونها مسرحا "سياسيا" للاحداث. ومن هنا فمركزية الساحة في التركيبة الفراغية للمدينة تقابلها مركزية مماثلة مرتبطة بالعاملين السياسي والإجتماعي وعلاقة متلازمة مع الفئات الإجتماعية المستعملة للساحة والمرتبطة بها، والتي تشكل "أحداث" المدينة وتتشكل بعلاقة الساحة في المنظومة التي تحيطها والتي غالبا ما تشكلت وفق رؤى وأجندات سياسية كما تؤكد شواهد التاريخ الحديث والمعاصر. في إطار البحث في أجدديات هذه العلاقة، يقدم الكتاب الذي بين أيدينا مجموعة من الأطروحات في خصوصية الساحة الإيطالية كمثال من التاريخ العمراني والسياسي المحلي الإيطالي.

الفراغات العامة الحضرية بطبيعتها تجسد أمثلة حية تتداخل بشكل مباشر مع التأثيرات السياسية وصناعة القرار، فحجم ونوع الناتج يحتم ضرورة تضافر مجهودات تتجاوز البعد الفردي لتشمل مؤسسات وعقليات والأهم، قرارات إدارية، تضعها في النهاية في المجال السياسي لإتمام ورعاية هذه العملية برمتها. ويقدم هذا الكتاب ضمن مشروع من سلسلة أوسع تبحث في التصميم الحضري والبيئة المبنية. وبالرغم من أن مبحث التصميم الحضري هو علم ومجال لتطبيقات تاريخية وضارية في القدم، إلا أنه مؤخرا بات يميز من قبل مؤسسات السلطة والباحثين في شؤون البيئة المبنية كمدار مهم يجمع بين النظرية والأكاديميا وبين الواقع المعاش العملي المؤثر والمتأثر بصناعة القرار والعوامل السياسية وسواها.

الكتاب الصادر عن دار (Ashgate) للنشر ببريطانيا عام 2008، يبحث في تاريخ الفراغ الحضري الإيطالي من خلال العلاقة بين النظم السياسية وبين طرق تمثيلها في العمارة. وهي دراسة بها الكثير من التفاصيل التاريخية والأمثلة لفهم العلاقة بين الأنظمة السياسة ويضع الكثير من الساحات الإيطالية في إطار تحليلي وسياق إجتماعي وسياسي، مع توضيح للتحويلات في النظام السياسي من "أوتوقراطي" إلى "ديمقراطي" عبر التاريخ وانعكاسات تلك التحويلات على طبيعة الفضاء الحضري، أو الساحة الإيطالية تحديدا. كما يحوي النص النظري العديد من

الأمثلة، ضمن إطار عام يرواح من الدراسات الأثرية القديمة وحتى اليوم، مع ملاحظة تحولات طبيعة الأنظمة السياسية التي وظفت تمظهرات للفراغ الحضري ونماذج أيقونية شكلت عبر العقود طبيعة المدينة وتشكلت "كأيديولوجية" أصبحت لاحقاً ظاهرة عالمية. وبهذا الإطار، فالبحث يرى الساحة كعنصر حضري أوروبي متوارث والذي له خصائص "عاطفية" في المتخيل العامي والرسمي. فهي، أي كلمة "ساحة" (Piazza) كمصطلح استعملت في سياقات مختلفة لتشير "نوع من الفراغ العام المفتوح"، كما استعملت الكلمة بما يعني "نوع من الحياة العامة المعاشة في الفراغ العام" والتي شاعت وسادت في جنوب أوروبا.

أطروحة هذا الكتاب تتمثل في أن الساحة الإيطالية المتوارثة والسائدة حالياً ليست فقط "تاريخاً متوارثاً" لتطورات مورفولوجية للشكل الحضري لكنها أيضاً تمثل قصة "التحور والتواصل" في الحياة السياسية وانعكاس لها في إيطاليا. وبالإضافة لذلك، فالشكل الحضري للساحات المختلفة في إيطاليا، والتي تتضمن تراثاً متصلاً له مرجعية كأحد التمظهرات القوية للفراغ العام الحضري، تعمل في نفس الوقت كوسيلة يقدم من خلالها النظام الأيديولوجي السائد نفسه.

تركيبية الكتاب تبدأ بتسلسل زمني من الرومان، وتستحضر العديد من الأمثلة من الفراغ الحضري الإيطالي بربطها مع التطورات السياسية لحقبة زمنية معينة في كل فصل من فصوله، ورغم أنه في نهاية كل فصل قد تظهر بعض القصص والنماذج غير المنتهية، وهذا بطبيعة أن تاريخ الفراغات الحضرية استمرت عبر فترة زمنية طويلة، والأشكال تطورت وتكيفت عبر نظم سياسية واجتماعية. وبطبيعة الحال فليست العملية هي مطابقة النموذج السياسي مع الفراغ الحضري بطريقة إسقاط "واحد-لواحد" وبطريقة حرفية. فالفراغات الحضرية، كما تجدر ملاحظته، هي عناصر في المدينة عموماً، وإيطالية في هذا الإطار، والتي استمرت كوعاء ناقل للقيم الاجتماعية، وكمفرزات مباشرة للأنظمة السياسية التي صنعتها - وحتى بعد زوال تلك الأنظمة السياسية وتأثيراتها وبعد فترات زمنية طويلة لاحقاً.

وإذا كان هناك ثمة رابط بين الفن وبين السياسة، فذلك يعني قبول الآلية التي يمكن للرمز أن يتمدد وينتقل للفراغ الحضري. فالمعاني التي ترتبط بالأشكال، والأيقونات، التي تكتسب صفة في الفراغات الحضرية الناتجة، كعناصر ثنائية وثلاثية الأبعاد، كنص مستوحى من هذا الأشكال، والأهم كأفكار ضمنية مفهومة يوحيها الشكل الحضري، يمكن استعادتها من الشكل الحضري والتي تكون ظاهرة بسهولة في الفراغات الحضرية وتجد لها في الغالب جمهوراً، عاماً أو "مؤدلجاً"، يرتبط بالمعاني الخاصة والمحددة التي توحىها. وتشكيل ذلك الفراغ الحضري هو بحد ذاته "نتاج" لعملية أيديولوجية، ويتجلى في الكثير من الفراغات التي أنتجت بواسطة "أنظمة سلطوية" ورغم أن العملية معقدة وليست أحادية أو خطية باتجاه واحد. فالتأمل في تركيبية المدينة يعي أن قراءة المدينة، إنما هي عبارة عن طبقات متراكمة من التاريخ، وإفرازات لصراعات سياسية وتغييرات

ملحوظة عبر الزمن. ولكن إذا كانت المدينة هي عبارة عن "ذاكرة جمعية"، كما يصفها "بوير"، وتجسد مجالا عاما أصليا وتراكمات من تفاعلات إجتماعية "لحظية"، فكيف لنا إذن أن نعرف الفراغ الحضري حيث تم التلاعب بتاريخه لأغراض سياسية، واستنادا لاتصال فراغي وتاريخي "تخبوي" بدرجة كبيرة - إن لم يكن متخيلا وغير حقيقي؟ ومن هنا يتوجب البحث في العوامل التاريخية الثقافية والنمطية وكيف تم استغلالها وتوظيفها لأغراض أيديولوجية، والبحث في العمارة الإيطالية، عموما، والتركيبية الحضرية لها توفر مجالا خصبا للبحث بسبب توظيفها المباشر للتاريخ لدعم الأنظمة السياسية وصعودها للسلطة، وبسبب انتقال هذه التعبيرات والمفاهيم للثقافات الأخرى.

من الأسئلة البديهية التي تطرح لتعريف الفضاء الحضري العام وترتبط ارتباطا مباشرا به هي في حقيقة المدينة وتعريفها؟ هل هي المدينة المتشكلة من عناصرها الفيزيائية، أم هي المدينة كنتاج لنظام سياسي معين أنتجها وتحكم في إدارتها وأثر تأثيرا مباشرا على شكل ونوعية الفراغ الحضري العام بها؟ هل هي مدينة البيوت والمباني العامة الصرحية أم هي مدينة المواطنين كانعكاس للبيئات الإجتماعية التي تتفاعل بها وتقطنها؟ وبتركيز الضوء على الساحة كنمط محدد من الفراغات الحضرية العامة، فهذين المظهرين من المدينة، الفيزيائي والإجتماعي، يمكن رؤيتهما معا في هذا الإطار. والساحة بخصائصها وكعنصر رئيس في أية نظرية حضرية، كانت على الدوام موضوعا للتفسيرات المنطقية ويمكن فهمها ضمن ثلاثة أطر رئيسية والتي تكرس مجموعة من القواعد: تفسير الفراغ الحضري كجزء من منظومة فيزيائية أشمل ومحاولة دمجها في متطلبات المجتمع المعاصر.

الأربعة عشر فصلا التي يضمها الكتاب، تضم مجموعات من الأقسام التي تعالج: التاريخ والمرجعيات، والتطورات في عصر النهضة والباروك، وفترة القرنين التاسع عشر والعشرين، وأخيرا فترة ما بعد عام 1945. وفي الجزء الأول، تمثل دراسة خصائص الفراغ الحضري في المدينة التاريخية حوارا بين المحتوى الفيزيائي والشكل المعماري والفكرة والمحتوى السياسي الذي تمثله. فتأثيرات العمارة اليونانية والتصميم الحضري تشكل نقطة بداية لدراسة ملامح من الثقافات القديمة على العمارة الإيطالية ومتعلقات التأثيرات الرومانية. والتميز بين الواقع والمثال التاريخي تم من خلال المقارنة بين نمطية الفوروم الرومانية، كما وصفها فيتروفوس، وبين النموذج المتطور للفراغ المركزي في العمارة الرومانية المتمثل في (Forum Romanum).

في الفصل الثاني مثلا، يتم البحث في الشكل المعماري الذي يمثل التحول من أنماط المباني الرومانية مثل البازيليكا إلى مباني مماثلة في الثقافة المسيحية والتي طبعت ملامح المدينة وشكلت طابعها الحضري وأثرت، سلطويا، في طبيعتها ونمط العمران بها. والدراسات المرجعية التاريخية تراوحت بين نصوص أوغسطين، والتي تشكل كتابات ونظريات "البرتي" خلفية لها

وإحدى الحقب التاريخية، لكن الأخيرة، كانت الأهم في معرفة الكيفية التي تكرست بها ساحات عصر النهضة وطبعت ملامح الشكل الحضري. وكانت أسس هذه الساحات مستندة لنظريات سياسية من حجم ووزن النظريات "المكيافيلية"، وأحيانا الجانب السلبي منها.

يبدأ الجزء الثاني من الكتاب في القرن الخامس عشر، بتشكيل الصراع السياسي الذي صبغ العصور الوسطى، والذي شكل خريطة إيطاليا السياسية على شكل مجموعة الولايات المرتبطة بالسلالات الحاكمة مرتبطة الولاء للبابوية أو الحكم الإمبريالي. وبطبيعة الحال كانت هذه الولايات الصغيرة المسيحية، والهلامية الحدود ومتغيرة الولاء السياسي، مجالا لتجارب النخبة الحاكمة وطموحاتهم السياسية وأنظمة السلطة التي فرضتها تلك النخب المسيطرة - وبالتالي، فرضت طبيعة النظام الفراغي الحضري، على المستوى التخطيطي العام. وفي الفصل الرابع، يشير النص التحليلي بهذا الكتاب لهذه الأنظمة وأن سيادة هذه الثقافات السياسية المدعومة من النخبة الحاكمة في إيطاليا الوسطى أظهرت نقلة وتحورا في الأنظمة السياسية نحو تشكيل نظم "أوتوقراط"، وهذا التحور انعكس على إفراس فراغات حضرية تضمنت أفكار "المدينة الفاضلة"، وهذه تجسدت في التماثل في الشكل، وتقليد السوابق التاريخية للحصول على شكل حضري واضح كتمثيل لمجتمع عصر النهضة. وبسيادة هذه الثقافة، شهد القرنان الخامس والسادس عشر إحياء للشكل المعماري الروماني، مما أدى لظهور نماذج حضرية تركز تقديم الساحة الرومانية "فوروم"، وإعادة تقديم الساحة الإيطالية "بيازا" في سان ماركو بالبندقية وإفراس مجموعات من الفراغات الحضرية والقصور في تلة الكابيتولين في روما. فالمحتوى الثقافي للمرجع الأثري تم استغلاله كشكل حضري محدد لغرض سياسي لمحاورة الحاضر، وكان الإختيار الدقيق والواعي للتركيب البصري عبارة عن أداة تعبيرية مهمة في هذا الإطار. وبدأت ولايات القرن السادس عشر المتأخرة باستخدام نماذج متطورة من "الطقوس" الحضرية لإعطاء الشرعية والمضمون للتركيبة السياسية. في المضمون الحضري تمثل ذلك في زيادة استخدام التعبيرية الشكلية لتعريف وتقديم فراغات جديدة وسائدة، والتي غالبا ما كانت تدعم المنظومة الإجتماعية للولايات التي تضم خليطا من الوظائف البيروقراطية والتجارية والخيرية، كما يلاحظ في مدن فلورنسا وبولونا وأريزو مثلا.

الجزء الثالث تخصص في دراسة وتحليل الفترة المعاصرة من منتصف القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين، تاريخ ميلاد إيطاليا المعاصرة. والإستعارة التاريخية والتمازج بين الحاضر والقديم تم توظيفه لإضافة الشرعية على النظام السياسي السائد. وجاء التحول من مفاهيم عصر النهضة والباروك وقراءتها التجديدية للشكل إلى خلاصات التنوير في مجال البحث الأثري والتي تميزت بالبحث عن الدقة التفصيلية في التركيبة البنائية، والتي واكبت فترة التوجهات الصناعية التي تعرضت لها المدينة في هذه الحقبة وصبغت ملامح المنظومة الإجتماعية -

ووضعت الإثنتين على المحك. وهو ما عزز الحنين للعناصر الأثرية المتوارثة، سعياً وراء البحث عن الأشكال المعمارية النقية، والتي باتت تشكل عناصر الفضاء الحضري العام. لكن تحليل مثل هذا التوجه النمطي في التفكير بات يحتم البحث في إشكالية دقة العودة للمنظومة الأثرية كسابق تاريخي كمرجعية ذات طابع ثقافي خالٍ من شوائب التداخلات السياسية والأنظمة التي لعبت دوراً لا يستهان به في تقديم التبرير التاريخي لهذه المرجعية وفي الناتج على حد سواء. محاولات النظرين والتطبيقات التي يذكرها النص كأمثلة تمثل انعكاسات لتفاعلات الأنظمة السياسية، ومنها مثلاً استعارات مباشرة من الماضي المعماري الرائد في ساحات إيطالية من تلك الحقبة، كأمثلة محددة، أو كمحاولات لاستحضار الحداثة في مدينة القرن التاسع عشر في حلة أثرية. في إطار آخر انعكست الوحدة الوطنية في "بيت سافوي" على المدن الإيطالية التي شهدت أنماطاً جديدة للفراغ الحضري مع الطابع الحديث المتضارب مع أوروبا القرن التاسع عشر. لتحل الدروب الضيقة للمدينة القديمة وتستبدل بالفراغات الجديدة المنحوتة من النسيج التقليدي القائم أو مصممة في أحياء جديدة.

مرحلة ما بعد عام 1945 التي يقدمها الكتاب، تمثلها أفكار المثالية التقدمية، وعمارة فرانك لويد رايت العضوية. كما شكل انهزام الفاشية وقدم النظام الجديد لحكومة الائتلاف ما عرف "بالواقعية الجديدة"، وأبرز مظاهره التركيز على الإسكان الاجتماعي والإهتمام بالعمارة البيئية، كما شكل النظام السياسي المتوازن تجاه التكنولوجيا تضامراً ضد التركيز على الفضاء الحضري العام. وهذا أدى، وبخاصة لدى الحاجة للتركيز على متطلبات ما بعد الحرب إلى إعادة النظر في الفراغات الحضرية العامة والنسيج الحضري. وجاءت كتابات ألدو روسي في "عمارة المدينة" لتعيد الإهتمام بطبيعة الفراغ الحضري الذي تم إهماله في مرحلة ما بعد الحرب. الكتاب يقدم نظرية تحليلية وتفصيلية، ضمن قراءة أبعدها من متناول ملخص يختزلها في مراجعة وسطور قليلة لا تغني عن تتبع النص الذي ينفرد عبر أربعة عشر فصلاً متدرجاً يعالج كل منها أطروحة تحليلية ونظرية عميقة مع أمثلة توضيحية بالصور والرسومات المصاحبة للنص.

عن كتاب

Piazza: The History and Meaning of the Italian The Politics of the Square

Limited, England and USA Ashgate Publishing

Eamonn Canniffe 2008